﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢
وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤
وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: 1 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

العصمةُ باللهِ وأداءُ فروضِه سبيلٌ للظَّفَرِ بصفاتِ المؤمنينَ المُفلحين

لَمّا ختمتْ سورةُ الحجّ بنداء الَّذين آمنوا وأمرِهم بأمورِ الدّين خاصَّةً وعامَّة، وخُتِمَ بها بوجوب إقامةِ الصَّلاةِ وأداءِ الزَّكاة والعصمة به ﷻ؛ أوْجَبَ ذلك توقُّعَ المؤدّين لها كلَّ خير؛ فابتدأت سورةُ (المؤمنون) بما يُثمرُ الاعتصامَ به سبحانه في الصَّلاةِ والزَّكاةِ وغيرِها من خلال الدّين في الدّارَيْن، فقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مُفتتحًا بحرف التَّوقُّع ﴿قَدۡ﴾ لتثبيتِ المتوقَّع وتقريبِ الماضي من الحال؛ لبيانِ ظَفَرِ المؤمنين المُتَّصفين بما ورد في صدرِ هذه السّورةِ من الصِّفات الخاصَّة بهم لا بغيرهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡلَحَ﴾: (فلح) أصلان صحيحان، أحدُهما يدلُّ على شقٍّ، والآخرُ على فوْزٍ وبقاء، والآيةُ من الثّاني: وهو الفلاحُ: الفوزُ والبقاءُ والنَّجاةُ وإدراكُ بُغيةٍ، وقول الرَّجلِ لامرأته: "اسْتَفْلِحي بأمْرِك"؛ معناه: فوزي بأمرِك[2]، والفَلاحُ ضربان: دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفرُ بالسَّعادات الَّتي تطيبُ بها حياة الدُّنيا من البقاءِ والغِنى والعزّ، وكلُّ ذلك مؤقَّتٌ، وإيّاه قصَدَ الشّاعرُ بقوله:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 104 - 105.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فلح).

أَفْلِحْ بما شئتَ فقد يدركُ بالـ *** ضَّعفِ وقد يُخَدَّعُ الأريب[1]

وفلاحٌ أُخرويٌّ: وهي دار الفَلاحِ بالبقاءِ والغِنَى والعِزّ، وكلُّ ذلك دائمٌ، ويُؤيِّدُه قول رسول الله ﷺ: "لا عَيْشَ إلّا عيشُ الآخرة"[2]، ومنه الآية الكريمة[3].

2) ﴿خَٰشِعُونَ﴾: خشع يَخْشَعُ خُشوعًا، والخُشوعُ: الضَّراعةُ والخُضوع، وأكثرُ ما يُستعمَلُ الخشوعُ فيما يوجَدُ على الجوارح، وأكثرُ ما تُستعمَلُ الضَّراعةُ فيما يوجَد في القلب، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: 109][4]، والخُشوعُ: السُّكون[5]، وقال عليٌّ ﷺ: الخشوعُ في القلب، وأن تُلينَ للمرءِ المسلم كنَفكَ، ولا تلتفت[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾: مُخبِتون أذلّاء[7]، خائفون[8]، متواضعون[9].

3) ﴿ٱللَّغْوِ﴾: (لغو) أصْلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى الشَّيْءِ لا يُعْتَدُّ بِهِ، والآخَرُ عَلَى اللهَجِ بِالشَّيْءِ، واللَّغوُ من الكلام: ما لا يُعتدُّ به، وهو الَّذي يوردُ لا عن رَوِيَّةٍ وفكر، فيجري مجرَى اللَّغا، وهو صوتُ العصافير ونحوِها من الطُّيور، وقد يُسمَّى كلُّ كلام قبيح لغوًا؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ [النَّبأ: 35]، ويُستعملُ اللَّغوُ فيما لا يُعتدُّ به، ومنه اللَّغوُ في الأيمان؛ قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: 225][10]، ومعنى قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ﴾: عن المعاصي[11]، والشَّتْم والأذى[12] وكلِّ باطلٍ ولهوٍ وهَزل ومعصية، وما لا يُحمَدُ في القول والفعل[13].

---

(1) البيت لعبيد بن الأبرص، ديوانه، ص: 26.

(2) الحديث عن أنس بن مالك، قال: قالت الأنصار يوم الخندق: "نحن الَّذين بايعوا محمَّدًا..، على الجهاد ما بقينا أبدًا، فأجابهم النَّبيّ ﷺ: «لا عَيْش إلّا عيشُ الآخرة، فأَكْرِمِ الأنصارَ والْمُهاجرة»، أخرجه البخاريُّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3795)، ومُسلمٌ في صحيحه، الحديث رقم: (1805).

(3) الرّاغب، المُفردات: (فلح).

(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (خشع).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).

(6) أخرجه ابن المبارك في الزّهد، الحديث رقم: (1148)، والحاكم في المُستدرَك، الحديث رقم: (3482)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذَّهبيّ.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 3، عن ابن عبّاس ﷺ.

(8) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 6، والجصّاص، أحكام القرآن: 3/ 252.

(9) مُقاتل بن سليمان، تفسير مُقاتل: 3/ 152.

(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (لغا).

(11) عبد الرّزاق الصّنعانيّ، تفسير عبد الرَّزّاق: 2/ 43، والنَّحاس، إعراب القرآن: 3/ 109، كلاهما عن الحسن البصري، وقال النَّحاس: "ومن أحسنِ ما قيلَ فيه قول الحسن ...، فهذا قول جامع".

(12) مُقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 29.

(13) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 6.

4) ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: (عرض) أصل واحد تكثر فروعه، وأعرضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُه، والعُرْضُ خُصَّ بالجانب، وأعْرضَ: أظْهرَ عَرْضَه؛ أيْ: ناصيتَه، وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي؛ فمعناه: ولَّى مُبديًا عَرْضَه، قال تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [آل عمران: 23][1]، ومنه قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾؛ أيْ: يتولَّونَ عن اللَّغو.

5) ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾: (زكى) أصلٌ يدُلُّ على نماءٍ وزيادة، ويُقال: الطَّهارةُ زكاةُ المال، وقال بعضُهم: سُمّيتْ بذلك؛ لأنَّها ممّا يُرجَى به زكاءُ المال، وهو زيادتُه ونماؤه[2]، والمُرادُ بها في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾؛ أي: الصَّدقة الواجبة بشروطها وأنْصبتِها[3]، والصَّدقة المُستحبّة.

6) ﴿فَٰعِلُونَ﴾: (فعل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إحداثِ شيءٍ من عَمَلٍ وغيره، من ذلك: فعلتُ كذا أفعلُه فعْلًا، وكانت من فلانٍ فعلَةٌ حَسَنةٌ أو قبيحة، والفِعالُ جمعُ فِعْلٍ، والفَعالُ بفتح الفاء: الكَرَمُ وما يُفعلُ من حَسَن[4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ أيْ: مُؤَدّون[5].

7) ﴿لِفُرُوجِهِمۡ﴾: (فرج) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَفتُّحٍ في الشَّيء، من ذلك: الفُرْجةُ في الحائطِ وغيرِه: الشَّقُّ، والفُروجُ جمع فرْجٍ، وهو ما بين رِجْلي الفَرَس[6].

8) ﴿حَٰفِظُونَ﴾: (حفظ) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُراعاةِ الشَّيْءِ، حَفِظَ يحفظُ حِفْظًا: حَرَسَهُ، وحَفِظه أيضًا: اسْتظهرَهُ، والمحافظةُ: المراقبةُ، والحفظُ يُستعمَلُ في كلِّ تفقُّدٍ ورعاية؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12][7]، ومعنى قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾؛ أيْ: مُمسِكون لها بالعفاف عمّا لا يحلُّ لهم[8].

9) ﴿مَلَكَتۡ﴾: (ملك) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيءِ، ويُقال هذا الشَّيءُ مِلْكُ

(1) الرّاغب، المُفردات، والفيروزابادي، القاموس: (عرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى).
(3) البَغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 409.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 4، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 463.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرج).
(7) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (حفظ).
(8) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 645.

يميني ومَلْكُ يميني، والفتحُ في الميم أفصح، والمملوكُ يختصُّ في التَّعارفِ بالرَّقيقِ من الأملاك، قال تعالى: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النَّحل: 75]؛ فالمملوكُ: العبدُ، وقد يُقال: فلانٌ جوادٌ بمملوكه؛ أيْ: بما يتملَّكه، والمِلْكةُ تختصُّ بمِلْكِ العبيد، ويُقال: فلانٌ حَسَنُ المِلكة؛ أي: الصّنع إلى مماليكه، وخُصَّ ملكُ العبيد في القرآن باليمين؛ فقال تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النور: 58]، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾[1].

10) ﴿مَلُومِينَ﴾: (لوم) كَلِمَتانِ تَدُلُّ إحْداهُما عَلَى العَتْبِ والعَذْلِ، والأُخْرَى عَلَى الإبْطاءِ[2]، فاللَّوْمُ: عَذْلُ الإنسانِ بنسبتِه إلى ما فيه لَوْم، يُقالُ: لُمْتُه فهو مَلومٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]، وألامَ: اسْتحقَّ اللَّوْم، قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾ [الذّاريات: 40]، والتَّلاومُ: أن يلومَ بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 30]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ذكر اللَّوْم تنبيهًا على أنَّه إذا لم يُلاموا لم يُفعل بهم ما فوق اللَّوْم[3]، فهم لا يُلامون على الحلالِ بوطءِ زَوْجاتِهم أو إمائهم[4].

11) ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾: بَغيتُ الشَّيءَ؛ إذا طلبتُ أكثرَ ما يجب، وابْتغيتُ كذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التَّوبة: 48]، والبَغْيُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يُتحرَّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزه، فتارةً يُعتبرُ في القَدْرِ الَّذي هو الكميَّة، وتارةً يُعتبرُ في الوصفِ الَّذي هو الكيفيَّة، وبَغَى ضالَّته يبغيها بُغاءً بالضَّمِّ والمدِّ وبُغايةً بالضَّمِّ أيضًا: طلبَها، وكلُّ طَلِبةٍ بُغاء، وبغَى له وأبغاه الشَّيءَ: طلبَه له[5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ طلبَ سوى الأزواجِ والوَلائد؛ أي: ابتغى الفواحشَ بعدهنَّ[6]، وطلبَ ما بعد ذلك[7].

12) ﴿ٱلْعَادُونَ﴾: (عدو) أصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ الفُروعُ كُلُّها، وهوَ يَدُلُّ عَلَى

(1) الرّاغب، المُفردات، والزّازيّ، مختار الصّحاح: (ملك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوم).
(3) الرّاغب، المُفردات، والزّازيّ، مختار الصّحاح: (لوم).
(4) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 29، والبغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 410.
(5) الرّاغب، المُفردات، والزّازي، مختار الصّحاح: (بغي).
(6) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 29، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 107.
(7) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.

تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِما يَنْبَغي أنْ يُقْتَصَرَ عليهِ[1]، عدا يعدو عَدْوًا، وعَداهُ يعدوهُ: جاوزه، والتَّعدّي: مجاوزةُ الشَّيءِ إلى غيرِه، يُقال: عدّاهُ تعديةً فتعدَّى؛ أيْ: تجاوز، وعدا؛ أيْ: جارَ وظلم، وعدا: جاوز[2]، وهما يرجعان إلى أصلٍ واحد؛ لأنَّ الظّالم مجاوزٌ ما حُدَّ له، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾؛ أي: الجائرون الظّالمون[3] يتعدّون الحلالَ إلى الحرام[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحقّقُ المؤمنين بصفاتٍ تجعلهم من المُفلحين

يُخبر اللّهُ تعالى عن بعضِ صفاتِ المؤمنين الذين فازوا وسعدوا وحصلوا على الفَلاح، أولئك المؤمنون المُتَّصفون بهذه الأوصاف: الَّذين تَفْرُغُ قلوبهم في صلاتهم، وتسكن جوارحهم فيها، وهم عن الباطلِ والمعاصي وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال تاركون، وهم مُؤدّون لزكاةِ أموالهم، ومُزكّون أنفسُهم عن الشِّرك والدَّنس، وهم قد حفظوا فروجَهم من الحرام الذي نهاهمُ اللّهُ عنه من الزِّنى واللِّواط وكل الفواحش، ولا يَقربونَ سوى أزواجهم الَّتي أحلَّها اللّهُ لهم، أو ما ملكت أيمانُهم من السَّراري، ومَنْ تعاطَى ما أحلَّه اللّهُ له فلا لَوْمَ عليه ولا حَرَج، وأمّا من ابْتغى ما وراء الحلالِ الطَّيبِ من الأزواجِ والإماء، فقد تعدَّى حدودَ اللّه وظلمَ نفسه؛ فهو من المجاوزين الحلال إلى الحرام، وقد عرَّض نفسه لعقاب اللّه وسُخطه[5].

مَن أحسن في صلاته أحسنَ في صِلاته

وترشدُ الآيات الكريمةُ إلى الحثِّ على الاتّصاف بصفات المؤمنين والتّرغيب فيها، وأنَّ العبدَ ينبغي أن يعرضَ نفسَه وغيرَه على هذه الآيات؛ حتى يعرفَ بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عدا).
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.
(4) الجشميّ، التّهذيب: 6/ 193.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 225 - 226، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسَّر، ص: 342.

زيادةً ونقصًا، وإلى أنَّ حضور القلب بين يدي اللّه تعالى الذي تنتفي به الوساوسُ والأفكار الرّديئة هو روحُ الصَّلاة والمقصود منها، وهو الذي يُكتب للعبد؛ فالصّلاةُ التي لا خشوعَ ولا حضورَ قلبٍ فيها - وإن كانت مُجزئةَ الأداء مُثابًا عليها - إلّا أنَّ الثّواب الوافيَ فيها على حَسَب ما يعقل القلبُ منها، وتُرشدُ الآياتُ إلى الإحسان في عبادة الخالق في الخشوع في الصّلاة، وإلى الإحسان إلى خَلْقه بأداء الزّكاة، ويدلُّ عمومُ ابتغاءِ ما أحلَّ اللّهُ على تحريم نكاح المُتعة؛ فالمرأة فيه ليست زوجةً حقيقةً مقصودًا بقاؤها ولا مملوكة، ويدلُّ على تحريم نكاح المُحلِّل لذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ في السّورة الكريمة:

جوامع الكَلِمِ تفتحُ بَوارِقَ الخيرِ والأمَل

افتتاحٌ بديعٌ صُدِّرت به هذه السّورةُ الكريمة؛ لأنَّه من جوامعِ الكَلِم، فإنَّ الفلاحَ غايةُ كلِّ ساعٍ إلى عملِه، ولمّا كانت هِمَّةُ المؤمنين مُنصرفةً إلى تمكُّنِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ من نفوسِهم؛ كان ذلك إعلامًا بأنَّهم نجحوا فيما تعلَّقت به هِمَمُهم من خيرِ الآخرة والحقِّ من خيرِ الدُّنيا، ويتضمَّنُ بشارةً برضَى اللّهِ عنهم، ووعدًا بأنَّ اللّهَ مُكْمِلٌ لهم ما يتطلَّبونَه من خير[2]، والسّورةُ مقصودُها الأعظمُ اختصاصُ المؤمنين بالفلاح[3]؛ فكان ما افتُتحَت به ذا إيماءٍ إلى ما ستتلوه من مقصودٍ كُلّيٍّ ومقاصدَ جزئيةٍ شارحةٍ له.

معنى ﴿قَدْ﴾ ونُكتةُ دخولِها على الفعلِ الماضي:

الفلاحُ حالٌ مُتحقِّقٌ للمؤمنين

﴿قَدْ﴾ حرفٌ يوجَبُ به الشَّيء؛ كقولك: قد كان كذلك، والخبرُ أن تقول: كان كذا، فأدخل ﴿قَدْ﴾ توكيدًا لتصديق ذلك[4]، ودخولُ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 547.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 8.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 182.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قد).

(قد) على الفعلِ الماضي لتقرِّبَه من الحال[1] حتَّى تُلحقَه بحُكمه، كما يقولون: (قد قامتِ الصَّلاة) قبلَ حالِ قيامِها[2].

والحالُ في الفعل الماضي لا يكون إلّا بإضمار (قد) أو بإظهارها؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النِّساء: 90]، ولا يكون ﴿حَصِرَتْ﴾ [النِّساء: 90] حالًا إلّا بإضمارِ (قد)[3]، فـ ﴿قَدْ﴾ ههنا يجوزُ أن تكون تأكيدًا لفلاحِ المؤمنين، ويجوزُ أن تكون تقريبًا للماضي من الحال، ويكون المعنى أنَّ الفلاحَ قد حصل لهم وأنَّهم عليه في الحال، ووراء هذا من المعنى مدحُهم، وعظيمُ التّرغيب في التّأسّي بهم في أحوالهم؛ فيكون في ذلك تشوُّفٌ وتشوُّقٌ لمعرفة هاتيك الأحوال؛ وهذا ما ستتلوه الآياتُ عقبَ هذه الآية الأولى.

فائدةُ التَّوكيدِ مع أنَّ الأمرَ لم يتحقَّق بعد:

الخطابُ بثباتِ المتوقَّع، وتحقُّقه لا محالة

لمّا أفادت ﴿قَدْ﴾ توكيدَ المتوقَّعِ وتثبيتَه في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ دلَّت على أنَّ المؤمنين كانوا مُتوقِّعين مثل هذه البِشارة؛ وهي الإخبارُ بثباتِ الفلاح، فخوطبوا بما دلَّ على ثباتِ ما توقَّعوه[4].

غرضُ حذفِ مُتعلَّق الفلاح:

تحقُّقُ فلاحِ المؤمنين في كلِّ ما قصدوا حصولَه

الإخبارُ بفلاح المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ دون ذِكْرِ مُتعلِّقٍ بفعلِ الفلاح، يقتضي في المقامِ الخطابيّ تعميمَ ما به الفلاحُ المطلوب، فكأنَّه قيل: (قد أفلح المؤمنون في كلِّ ما رَغبوا فيه)؛ أي: أفلحوا فلاحًا كاملًا[5].

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ودلالة الاسمية:

تحقُّقُ الإيمانِ بمَنِ اتَّصفَ بأعمالِه

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالاسمِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المحلَّى بـ (أل) إشارةً

(1) البقاعيّ، نَظم الدُّرر: 13/ 105.
(2) ابن يعيش، شرح المُفصَّل: 8/ 147، وأبو حيّان، ارتشاف الضَّرَب: 3/ 256، وابن هشام، مُغني اللَّبيب: 1/ 195.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/ 24.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 25.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 8.

إلى أنَّ مَنْ أقرَّ بالإيمانِ وعملَ بما أُمِرَ به في آخر السّورة الَّتي قبلَها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: 77 - 78] إلى قوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 78]؛ فقد استحقَّ الوصفَ الثّابت؛ لأنَّه اتَّقى وأنفقَ ممّا رُزِقَ وجاهدَ وصلَّى وزكَّى واعتصمَ باللّه[1]، وذلك يشمل كلَّ مؤمنٍ في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجنسٍ؛ فـ(أل) فيه للجنس.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ اسْتِئنافًا لقولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تعريفًا بهم وبصفاتهم الموضِّحة والمادحة لهم، حسبَ اعْتبارِ ما ذُكِرَ في حيِّزِ الصِّلة من المعاني مع الإيمان إجمالًا أو تفصيلًا[2]، وهو يصحُّ أن يكون استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الحُكم عليهم بالفلاح المؤكَّد المُحقَّق عامٌّ المتعلَّقِ يُشوِّق إلى معرفة أوصاف هؤلاء المؤمنين؛ فذلك مِن شأنه أن يُحرِّك المُتلقّي لسؤالٍ عن ذلك؛ فكانت هذه الآية وما بعدها ممّا في سياقها جوابًا عنه.

اسْتئنافُ تعريفٍ بصفاتِ المؤمنينَ المفلحين

غرضُ التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ وتكريرِه:

أجْرَى النَّظمُ الكريمُ الصّفاتِ على المؤمنين بالتَّعريفِ بطريقِ الموصولِ وبتكريرِه؛ للإيماءِ إلى وجْه فلاحهم وعلَّته؛ أيْ إنَّ كلَّ خَصْلةٍ من هذه الخصالِ هي من أسبابِ فلاحهم، وهذا يقتضي أنَّ كلَّ خَصْلةٍ من هذه الخصالِ سببٌ للفلاح؛ لأنَّه لم يقصد أنَّ سببَ فلاحِهم مجموعُ الخصالِ المعدودة هنا، فإنَّ الفلاحَ لا يتمُّ إلّا بخصالٍ أُخرى ممّا هو مرجعُ التَّقوى، ولكن لَمّا كانت كلُّ خصلةٍ من هذه الخِصالِ تُنبئ عن رسوخِ الإيمانِ من صاحبِها؛ اعْتُبِرَت لذلك

الخلالُ التي بها فلاحُ المؤمنين

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 105.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 48.

سببًا للفلاح، وصُدِّرت بالاسْمِ الموصول[1]، وفي التّعبير بالموصول مدحهم، وفي تكريره إبلاغٌ فيه؛ تأسيسًا على أنَّ الصّلة بيانٌ وتعريف للموصول المُبهم الغامض.

نكتةُ التَّعبيرِ في الخشوع بالجملةِ الاسْميَّة:

الخشوعُ صفةٌ مُلازمةٌ للمؤمنينَ المفلحين

الجملةُ الاسميَّةُ تقتضي الثَّبات، وكذلك هنا في وصف المؤمنين عُبِّر بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، فهم في ثباتٍ في صفة الخشوع؛ أي: الخشوعُ مصاحبٌ لهم في صلاتهم لا يُغادرهم، وهو كنايةٌ عن تعلُّقِ قلوبهم بالله، وشدَّةِ الخوفِ منه ﷻ، ولذلك جاء الإخبارُ بثباتِ الفلاحِ لهم فخوطبوا بما اتّصفوا به، ومنه ثباتُهم في الخشوعِ لهم في صلاتِهم ودوامِه[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

الصَّلاةُ جزءٌ أصيل مهمٌّ في حياة المؤمن

التَّعبيرُ بالحرف ﴿فِي﴾ يُفيدُ الظَّرفيَّةَ الدّاخلةَ في عُمقِ زمنِ إقامتِهم وأدائهم للصَّلاة، فكأنَّهمُ انْغَمسوا في قلبِ صلاتهم فدخلوا في محرابِ وُجدانِها، فأصبحوا جزءًا منها وأصبحتْ جزءًا منهم، لا ينفكّون عنها ولا تنفكُّ عنهم، وزاد هذا التَّعبيرَ قوَّةً خشوعُهم فيها، ولذلك قالَ تعالى: ﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾:

ضرورةُ الاهتمامِ بشأنِ الصَّلاة؛ فهي أعظمُ فرائضِ الإسلام

الأصلُ أنَّ الجارَّ مُتعلِّقٌ بما بعده، ولكنَّه قُدِّم هنا فقال: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ للاهتمامِ به؛ وهو أمرُ إقامةِ الصَّلاة في حياتهم، وحسَّنه كونُ مُتعلَّقِه فاصلة، وكذلك هو الحال فيما بعده من أخواته[3]، وللإيذانِ بأنَّ لهم تعلُّقًا شديدًا بالصَّلاة؛ لأنَّ شأنَ الإضافةِ أن تُفيدَ شدَّةَ الاتِّصالِ بين المُضافِ والمُضافِ إليه؛ لأنَّها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 9.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 8/ 315.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 8/ 315.

على معنَى لام الاخْتصاص، فلو قيل: (الَّذين إذا صلّوا خَشَعوا)؛ فاتَ هذا المعنَى[1].

نكتةُ إضافةِ الصَّلاةِ إلى ضميرِ المؤمنين:

المـؤمـنـون هـمُ المـنـتـفـعـونَ بالصَّلاة

أُضيفَتِ الصَّلاةُ إلى ضميرِ ﴿هُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ﴾؛ لأنَّهم هُمُ المنتفعون بها وبثمراتِها في الدُّنيا والآخرة، وهي عُدَّتهم وذخيرتُهم، والمصلَّى له - وهو اللهُ تعالى - غنيٌّ عنها وعن الانْتفاعِ بها[2]، وفيها إيماءٌ إلى كمال عنايتهم بها في نور توجيهات الشَّرع الحنيف؛ كأنَّها من مسئولياتهم ومن محلِّ رعايتهم؛ وأنَّهم لذلك يُقبِلون عليها ويرتاحون فيها.

نكتةُ ذِكْرِ الخشوعِ مع أنَّه ليس من أركانِ الصَّلاة:

الـصَّـلاة أوْلى مواضع الخشوعِ وأعلاها منزلة

الخشوعُ: خوفٌ يوجِبُ تعظيمَ المخوَّفِ منه، ولا شكَّ أنَّ الخشوعَ للهِ يقتضي التَّقْوى فهو سببُ الفلاح، وفي وصف المؤمنين بالخشوعِ في صلاتِهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ مع أنَّه ليس من أركانها؛ لقصد الجمعِ بين وصفِهم بأداءِ الصَّلاةِ وبالخشوع، وخاصَّةً إذا كان في حال الصَّلاة؛ لأنَّ الخشوعَ للّه يكون في حالِ الصَّلاة وفي غيرها، إذِ الخشوعُ محلُّه القلب؛ فليس من أفعال الصَّلاة، ولكنَّه يتلبَّسُ المُصلّي في حالةِ صلاته، وذُكرَ مع الصَّلاة؛ لأنَّ الصَّلاة أوْلى المواضع بإثارةِ الخشوعِ وقوَّته ولذلك قُدِّمت؛ ولأنَّه بالصَّلاةِ أعْلَق؛ فإنَّ الصَّلاةَ خشوعٌ للّه تعالى وخضوعٌ له؛ ولأنَّ الخشوعَ لمّا كان للّه تعالى كان أوْلى الأحوالِ به حالُ الصَّلاة؛ لأنَّ المُصلّي يُناجي ربَّه فيُشْعِرُ نَفْسَه أنَّه بين يَدَي ربِّه فيخشع له، وهذا من آدابِ المعاملةِ مع الخالقِ سبحانه تعالى؛ وهي رأسُ الآدابِ الشَّرعيَّة ومصدرُ الخيراتِ كلِّها[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 25.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 9.

بلاغة الإيجاز في الآية:

الـخـشـوعُ في الـصَّـلاة سجيَّةٌ ثابتةٌ للمؤمنين

جاء الإيجازُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ في أجْلَى معانيه، إذ إنَّ من شأن المؤمنين المُفلحين التَّشوُّقَ للصَّلاة بإقامتها وأدائها، فهي أساسُ الفروض، ورأسُ العبادات، ولذلك اسْتخدمَ النَّظمُ الكريمُ كلماتٍ قليلةٍ مع ما ترمي إليه من معانٍ جليلةٍ عظيمة، فعرَّفَ المؤمنينَ المفلحينَ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾ باسْتعمالِ اسْمِ الموصول وصلته، ثمَّ بقوله: ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ بتقييدِ الخشوعِ بكونه في الصَّلاة، فجمع لهم بين الصَّلاة والخشوع، مع بيانِ تعلُّقِهمُ الشَّديدِ بالصَّلاة، ولم يتأتَّ وصفهم بكونهم خاشعين إلّا بالجملة الاسْميَّة وما تدلُّ عليه من ثباتِ الخشوع لهم ودوامِه؛ أيْ: كونُ الخُشوع خُلُقًا لهم بخلافِ نحو: (الَّذين خشعوا)، فحصل الإيجاز، ولم يَفُتِ الإعجاز[1].

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾:

عـطـفُ صـفـةٍ على ما تقدَّمَها لموصوفٍ واحد

العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ هو من قبيلِ عطفِ الصِّفاتِ لموصوفٍ واحدٍ؛ وهو هنا المؤمنون في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: المؤمنون الَّذين من صفاتهم أنَّهم عن اللَّغوِ مُعرِضون؛ لأنَّ الإعراضَ عن اللَّغو من صفات المؤمنين المُفلحين[2].

غرض التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول:

بيانُ سببٍ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين

صُدِّرت هذه الصِّفةُ بالاسْمِ الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لبيان سببٍ آخرَ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين، ووَجْهٍ آخرَ من وجوه ما يستحقّون به هذا الثَّناءَ العظيمَ بجعلِهم من أهلِ الفلاح[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.

نكتةُ تكرارِ الاسمِ الموصول وصلته، والإظهار في مقامِ الإضمار:

صفات الفلاح تتكامل وتترقَّى في نفوس أصحابها

نُظمت الصِّفاتُ مع تصديرِها بالاسْمِ الموصول وصلتِه؛ للثَّناء على المؤمنين بما هم أهلُه، وفي إعادةِ الاسْمِ الموصول مع صلتِه دون اكتفاءٍ بعطف صلةٍ على صلةٍ للإشارة إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفات موجِبةٌ للفلاح، فلا يُتوهَّمُ أنَّهم لا يُفلحونَ حتَّى يجمعوا بين مضامين الصَّلاةِ كلِّها فحسب، ولِما في الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ من زيادةِ تقريرٍ للخَبَرِ في ذهنِ السّامعِ بعد تشوُّفه لمعرفته والوقوفِ على مضمونه[1]، وهذا ينظرُ إلى تحقيق فعل الفلاح وتوكيده بـ ﴿قَدۡ﴾ في صدر السّورةِ؛ فكما كان تحقيق وتوكيد في المجمَل كان مِثْلُه في التّفصيل، وفي التّكرارِ تنبيهٌ على استواء أو تقارب قوة تسبُّبِ ما يرِد في حيِّز كل موصولٍ من صلةٍ، في حصولِ الفلاحِ للمؤمنين، ومن فوائد التّكرار: حصول التّماسك والتّرابط بين الآيات ومعانيها.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة في الإعراض عن اللَّغو:

ثباتُ المؤمنين في إعراضِهم عن اللَّغو

لم يأتِ النَّظمُ القرآنيُّ بقولِه في وصفِ المؤمنين: (أعرضوا عنِ اللَّغو)، أو بقوله: (كانوا عنِ اللَّغوِ معرضين)، وإلّا يَفُتْ ما تدلُّ عليه الجملةُ الاسْميَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ من ثباتِ إعراضِهم عنِ اللَّغوِ ودوامه، فإعراضُهم عن اللَّغوِ ثابتٌ لهم في حياتِهم حتَّى أصبحَ صفةً ملازمةً لهم[2].

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾:

إفادة الحصر في الإعراض عن اللَّغو وانصرافهم عنه

في تقديم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ على الخبر ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ إفادةُ الحَصْرِ في إعراضِهم عن اللَّغو، وتركِه بالكُلِّيَّة[3]، وفي تقديمه أيضًا: تنبيهٌ على أنَّهم أدركوا أنَّ اللَّغو مِمّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

ينبغي التّولّي والإعراض عنه؛ فقد عرَفوه؛ ولذلك حذروا منه، وهذا يعني أنَّ من أسبابِ فلاح هؤلاء المؤمنين أنَّهم يعبدون اللّه على عِلْمٍ، والعبادة القليلة مع العلم خيرٌ من العبادة الكثيرة مع الجهل.

معنى (أل) في ﴿ٱللَّغۡوِ﴾:

المؤمنونَ مُعرِضونَ عن كلِّ ما يعنيه اللَّغو

(أل) في قوله ﷻ: ﴿ٱللَّغۡوِ﴾ لإفادةِ جِنْس ما يدخلُ في معنَى اللَّغوِ ممّا لا يُعتدُّ به من الأقوال والأفعال، وكلِّ باطل، وما شاعَ في الكلام الَّذي يورَدُ لا عن رَوِيَّةٍ وفكرٍ، وكلِّ كلامٍ قبيح[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإعراضِ مادَّةً وصيغةً:

اجتنابُ المؤمنين للَّغوِ صار طبعًا لهم في عامَّةِ أوقاتِهم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن اجْتنابِ المؤمنين للَّغْوِ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿مُعۡرِضُونَ﴾، وهذا أبلغُ من أن يُقال: (لا يلهون)، أو: (يتركون)، فإقامةُ الإعراضِ مقام التَّرك ليدُلَّ على تباعُدِهم عنه رأسًا مباشرةً وتَسَبُّبًا ومَيْلًا وحُضورًا، فإنَّ أصلَه أن يكونَ في عُرْض؛ أيْ: ناحيةٍ غير عُرْضِه، فالإعراض يشمل التَّرك وزيادة، و﴿مُعۡرِضُونَ﴾ اسْمٌ دالٌّ على الاسْتمرار؛ أيْ: يدخلُ فيه إعراضُهم عن اللَّغوِ في عامَّةِ أوقاتهم؛ حتى صار تركه والانصرافُ عنه طبعًا فيهم، وديدنًا لهم.

فائدةُ التَّعقيب عن إعراضهم عنِ اللَّغو بعد وصفِهم بالخشوع:

الإعراضُ عن اللَّغوِ ممّا تقتضيه الصَّلاةُ والخشوع

عقَّبَ النَّظمُ القرآنيُّ ذِكْرَ الخشوعِ بذِكْر الإعراضِ عنِ اللَّغو؛ لأنَّ الصَّلاةَ في الأصل الدُّعاء، وهو من الأقوالِ الصّالحة فكان اللَّغوُ ممّا يخطُرُ بالبالِ عند ذِكْرِ الصَّلاة بجامع الضِّدّيَّة؛ فكان الإعراضُ عن اللَّغوِ بمعنَيَي الإعراض ممّا تقتضيه الصَّلاةُ والخشوع؛ لأنَّ مَن اعْتادَ القولَ الصّالحَ تجنَّبَ القولَ الباطل، ومَن اعْتادَ الخشوعَ للّهِ تجنَّبَ قولَ الزّور[2]، فالإعراضُ عنِ اللَّغوِ من مُتمِّمات الصَّلاة[3]؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 11.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 261.

فجاء وصفُهم بالإعراضِ عنِ اللَّغوِ بعد وصفِهم بالخشوع في الصَّلاة؛ ليجمعَ لهمُ الفعلَ والتَّركَ الشّاقَّيْنِ على الأنفُسِ اللَّذَيْن هما قاعدتا بناءِ التَّكليف[1].

والحاصلُ أنَّ الصّفة الثّانيةَ من شأنها أن تُحقِّقَ الأولى وتوكِّدَها؛ لأنَّ حصول اللَّغو أثناء الصَّلاةِ أو بعدِ الصَّلاةِ ممّا من شأنه أن يتسبَّبَ في نقصِ الخشوعِ؛ فكأنَّ هاتيْنِ الصِّفتيْن صفةٌ واحدةٌ كبيرةٌ؛ وإن نُظِمتا في آيتيْن.

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾:

تقويةُ الثَّناءِ على المؤمنينَ المُفلحين

ورد قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ من قَبيل عطفِ صلةٍ على صلةٍ؛ تقويةً للثَّناءِ على المؤمنين[2] الَّذين وُصفوا بالفلاحِ المُحقَّقِ في صدرِ السّورة في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وسرْدًا للأوصافِ التي تسبَّبَتْ في وصفهم بالفلاح في مطلع السّورة.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

التَّعريفُ بأنَّ صفةَ أداءِ الزَّكاةِ من أسبابِ الفلاح

إجراءُ الصِّفاتِ على المؤمنين بالتَّعريفِ بطريقِ الموصولِ؛ للإيماء إلى وجهِ فلاحِهم وعِلَّته؛ أيْ: هذه الخصلةُ من هاتِه الخِصالِ للمؤمنين هي من أسبابِ فلاحِهم، وهي تُنبئ عن رسوخِ الإيمانِ من صاحبِها، لذلك اعتُبرتْ سببًا للفلاح[3].

غرضُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة في أداء الزكاة:

ثباتُ المؤمنين على فعلِ الزَّكاة

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسْميَّة في قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على ثباتِ المؤمنين من فاعلي الزَّكاة في أدائها ودوامِهم على إتيانها لمُستحقّيها[4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 9، 13.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.

نكتةُ تكرارِ الاسمِ الموصولِ وصلتِه، والإظهارِ في مقامِ الإضمار:

كـلُّ صـفـةٍ من صفاتِ المؤمنين موجِبةٌ للفلاح مقرِّرةٌ له

تكرارُ الاسمِ الموصول (الَّذين) مع صلتِه ﴿هُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفاتِ موجِبةٌ للفلاح، فلا يُتوهَّمُ أنَّهم لا يُفلحون حتَّى يجمعوا بين مضامينِ الصَّلاةِ كلِّها، ولِما في الإظهارِ في مقامِ الإضمار من زيادةِ تقريرٍ للخبرِ في ذِهْنِ السّامع[1].

معنَى (اللّام) في ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾:

الـــلّام لتقوية أداء الـزّكـاة أو لتعليله

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾ للتَّقوية؛ لضَعْفِ العاملِ بالفَرْعيَّة، وبالتَّأخيرِ عن معموله، ويجوز أن تكون لامَ التَّعليل؛ لأنَّ الزَّكاة فيها معنَى تزكية النَّفْس[2]، ويمكن أن تكون اللّامُ لتقويةِ العملِ من وجْهَيْن، تقديمِ المعمول، وكونِ العامل اسْمًا[3]؛ أي: أثبت اللّامَ تقويةً لاسم الفاعل في قوله: ﴿فَعِلُونَ﴾[4].

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾:

الـتَّـنـبـيـهُ على أهميَّة الزَّكاة، والتَّعلُّق الشَّديد بفعلها

تقدَّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾ على ﴿فَعِلُونَ﴾؛ لمزيدِ الاهْتمامِ بشأن الزَّكاة، وبيانِ مَصبِّ الفائدة في الإنفاق المأمورِ به فيما يليقُ بصاحبِه فعلُه على وجهِ الطّاعةِ لله، وأداءِ حقوقِ العبادِ عليه[5]، وللتّنبيه على أنّ فعل الزّكاة لم يكن من فاعليها إلّا مِن بعد عِلْمٍ بحقيقة الزّكاة وثمرتها ومنافعها، إلى آخر ما يتعلّق بها ممّا يُفيد معرفتُه في حصول الفلاح بالزّكاة، وللإيذان بأنَّ لهم تعلُّقًا شديدًا بإيتاء الزَّكاة؛ لأنَّ شأنَ الإضافة أن تُفيدَ شدَّةَ الاتّصالِ بين المُضافِ والمُضافِ إليه؛ لأنَّها على معنَى لام الاختصاص[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10/ 13، وينظر: الرّاغب، المُفردات: (زكي).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 107.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.

معنَى (أل) في ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾:

الـزَّكـاةُ فريضةٌ ربّانيَّةٌ معلومةٌ مـن الـدّيـن بالضَّرورة

(أل) في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾ للعهد؛ أي: الزَّكاةُ المعهودة المفروضة في الأموال على المسلمين - بحسَب حالهم وأزمانهم - بشروطِها وأنصبتِها ومصارفِها؛ لأنَّ هذه اللَّفظةَ قد اخْتُصَّت في الشَّرع بهذا المعنَى[1]، يقول ابن عاشور: "والسّورة مَكّيَّةٌ بِالاتِّفاقِ، ولا اعْتِدادَ بتَوَقُّفِ مَنْ تَوَقَّفَ في ذَلِكَ بِأنَّ الآيَةَ الَّتي ذُكِرَتْ فيها الزَّكاةُ وهيَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ تُعَيِّنُ أنَّها مَدَنيَّةٌ؛ لأنَّ الزَّكاةَ فُرِضَتْ في المَدينَةِ، فالزَّكاةُ المَذْكورَةُ فيها هيَ الصَّدَقَةُ لا زَكاةَ النُّصُبِ المُعَيَّنَةِ في الأمْوالِ، وإطْلاقُ الزَّكاةِ على الصَّدَقَةِ مَشْهورٌ في القُرْآنِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: 6 - 7] وهيَ سورَةٌ مَكّيَّةٌ بِالاتِّفاقِ، وقالَ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مَرْيَم: 54 - 55] ولَمْ تَكُنْ زَكاةُ النُّصُبِ مَشْروعَةً في زَمَنِ إسْماعيلَ"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ مادَّةً وصيغةً:

أداءُ الزَّكاةِ فعلٌ يـقـوم بـه مَـن وفَّقه الله إليه

الزَّكاةُ اسمٌ مُشتركٌ بين عَيْن ومعنَى؛ فالعَيْنُ: القَدْرُ الَّذي يُخرجُه المُزكّي من النِّصابِ إلى الفقير؛ والمعنَى: فعلُ المُزكّي الَّذي هو التَّزكية، وهو الَّذي أرادَه اللّهُ تعالى فجعل المزكّين فاعلين له، ولا يَسوغُ فيه غيرُه؛ لأنَّه ما من مصدرٍ إلّا يُعبَّر عن معناه بالفعل، ويُقالُ لمُحدِثه: فاعل، تقول للضّارب: فاعل الضّرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمُزكّي: فاعل الزَّكاة، وعلى هذا الكلامُ كلُّه، والتَّحقيق فيه: أنَّك تقولُ في جميعِ الحوادثِ مَنْ فاعلُ هذا؟ فيُقالُ لك: فاعلُه اللّه، أو بعضُ الخَلْق، ممَّن خلقَ اللّهُ الفعلَ على أيديهم وجعلَهم محلًّا له، ولم يمتنع الزَّكاة الدّالَّة على العَيْنِ أن يتعلَّق بها ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ لخروجِها

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 261.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 6.

من صحَّةِ أن يتناولَها الفاعل[1]، وكذلك يُقال: إنَّما أوثِرَ هنا الاسْمُ الأعمُّ وهو ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ لأنَّ مادَّةَ (فعل) مُشتهرةٌ في إسداءِ المعروف، واشْتقَّ منها الفَعالُ بفتح الفاء[2]، فهي أبلغ في سياق مدحهم هذا المدح العظيم بالفلاح العظيم.

نكتةُ التَّعبيرِ عن الزَّكاةِ بالفعلِ دون الإيتاءِ أوِ الأداء:

الـزَّكـاةُ ممّا يـصـدُقُ عليه التَّعبيرُ بالفعل

آثر السياقُ الكريمُ التَّعبير بالفعل في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾، على معنَى فعلِهم للزَّكاة هو إيتاؤها لِمُستَحقّيها أو تأديتُها لهم، ولكنَّ النَّظْمَ الكريمَ عبَّر عن الإيتاءِ أو التَّأديةِ بالفعل؛ لأنَّها ممّا يصدُقُ عليه الفعلُ[3] في مادَّته - كما تقدَّم آنفًا - في اسْتعمالِها في إسداءِ المعروف.

فائدةُ الحديثِ عن فعلِهم للزَّكاة بعد ما تقدَّم من صفاتهم:

بلـوغُ المؤمنين الـغـايـةَ الـقـصـوى من أداءِ الطّاعاتِ البدنيَّة، وتجنُّبِ المحرَّمات

جاء وصفُ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ بعد وصفِهم بالخشوعِ في الصَّلاة للدَّلالة على أنَّهم بلغوا الغايةَ القاصيةَ من القيامِ بالطّاعاتِ البدنيَّة والماليَّة، وتجنُّبِ المحرَّمات وسائرِ ما توجبُ المروءةُ اجْتنابَه، وتوسيطُ حديثِ الإعراضِ بينهما؛ لكمالِ ملابسته بالخشوعِ في الصَّلاة[4].

مناسبة الترتيب بين الآيات:

فُصِلَ بينهما هنا بالإعراضِ عن اللَّغو؛ لأنَّ الصَّلاة في الأصلِ الدُّعاء، وهو من الأقوالِ الصّالحة؛ فكان اللَّغوُ ممّا يخطُرُ بالبالِ عند ذِكْرِ الصَّلاةِ بجامع الضِّدّيَّة[5]، وإذا كانت صفة الإعراض عن اللَّغو من تمام صفة الخشوع في الصَّلاة من حيث إنّ الثّانية تُحقّق

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 12.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 645.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 49.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 11.

وتوكِّد الأولى؛ فإنَّ صفة فعل الزَّكاة هنا تقَع من صفة الإعراض عن اللَّغو هنا نفسَ الموقِع؛ فتأدية الزّكاة تحقّق التَّطهُّر من اللّغو؛ كما ورد في حديث النّبيّ ﷺ: "والصَّدقة تُطفئ الخطيئةَ كما يُطفئ الماءُ النّارَ"[1].

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾:

أداءُ الزَّكاةِ والإعراضُ عن اللَّغوِ سبيلانِ لحفظِ الفُروج

ذكرَ النَّظمُ القرآنيُّ حفظَ الفُروجِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ عطفًا على الإعراضِ عن اللَّغو؛ لأنَّ من الإعراضِ عن اللَّغو تركَ اللَّغو بالأحْرى؛ لأنَّ زلَّةَ الصّالح قد تأتيه من انْفلاتِ أحدِ هذيْن العُضوَيْن - اللِّسانِ والفَرْج - من جهة ما أودِعَ في الجِبلَّةِ من شهوة اسْتعمالهما، فلذلك ضبطتِ الشَّريعةُ اسْتعمالَهما بأن يكون في الأمورِ الصّالحةِ الَّتي أرشدتِ إليها الدّيانة[2].

وجاء - كذلك - عطفُ صفةِ حفظِ الفَرْجِ على صفة أداء الزَّكاة؛ لأنَّ بذلَ المالِ على وجْهِهِ طُهْرة، وأنَّ حَبْسَه عن ذلك تَلِفَة، فأتبعَه الإيماءُ إلى أنَّ بَذْلَ الفَرْجِ في غير موضعِه نجاسة، وحفظُه طُهْرَةٌ[3].

مناسبة ورود صفة حفظ الفرج بعد الصفات السّابقة:

حفظُ الفرجِ نتيجة لتحقيق الصفاتِ السّابقة

وفي مجيء هذه الصِّفة بعد الصّفات السّابقة تنبيهٌ لطيفٌ على عِظَم خطرِ تحقُّق هذه الصِّفة؛ فإنَّ حفظ الفَرْج يفتقر إلى إقامة الصّلاة، وإلى حفظ اللّسان بالإعراض عن اللّغو؛ لأنه رُبَّ كلمةٍ جرَّتْ إلى الزِّنى - عياذًا باللّه من ذلك - وإلى تهيئة النّفس للمَيْل إلى الشَّرع ومحاسنه وأوامره ونواهيه؛ ومن خيرِ ما يُحقِّقُ ذلكَ الزَّكاة خصوصًا والإنفاقُ عمومًا، واللّه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45].

(1) القول النبوي المذكور جزء من حديث في سنن الترمذي، أبواب السفر، الحديث رقم: (614).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14 - 15.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 108.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

بيانُ سببٍ آخرَ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين

صُدِّرت هذه الصِّفةُ - كسابقيها - بالاسْمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لبيان سببٍ آخرَ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين، ووَجْهٍ آخرَ من وجوه ما يستحقّون به هذا الثَّناءَ بجعلِهم من أهلِ الفلاح[1].

نكتةُ تكرارِ الاسْمِ الموصول وصلتِه، والإظهار في مقام الإضمار:

الثَّناءُ على المؤمنين بصفاتِ فلاحِهم وتقريرِهم عليها

صَدَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ كلَّ صفةٍ من صفاتِ المؤمنين المُفلحين بالاسْمِ الموصولِ وصلتِه للثَّناء على المؤمنين بما هم أهلُه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من صفاتِهم موجبةٌ للفلاح، وفي الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ زيادةُ تقريرٍ للخبر في ذهنِ السّامع بعد تشوُّفِه لمعرفتِه والوقوفِ على مضمونِه[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة ﴿هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾:

ثباتُ المؤمنين في حفظِ فروجِهم

لم يأتِ بيانُ القرآن بقوله في وصف المؤمنين هنا: (حفظوا فروجَهم)، أو: (كانوا لفروجِهم حافظين)، حتَّى لا يَفتَّ ذلك من عَضُدِ ما تعنيه الجملةُ الاسْميَّةُ من ثباتِ حفظِهم لفروجِهم ومداومتِهم عليه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ فحفظُهم لفروجِهم مُلازمٌ لهم في حياتِهم لا يتخلَّف[3]؛ لأنّه نتاج الأوصاف السّابقة التي أعانت المؤمنين على تحقيق ذلك الحفظ لفروجهم.

معنَى اللّام في ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾:

اللّامُ لتقويةِ اسْمِ الفاعلِ (حافظون)

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ لامُ التَّقوية؛ لضَعْفِ العاملِ بالفَرعيَّةِ وبالتَّأخير عن معمولِه، وهذه التَّقويةُ من وجْهَيْن: تقديم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 15.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 15.

المعمول، وكونِ العاملِ اسْمًا[1]؛ أيْ: أثبت اللّامَ هنا تقويةً لاسم الفاعل ﴿حَٰفِظُونَ﴾[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عمومُ سَوْءاتِ الرِّجال والنِّساء، والمُرادُ هنا خصوصُ الرِّجال

الفَرْجُ اسْمٌ يجمعُ سَوْءات الرِّجال والنِّساء، فالقُبُلان وما حواليهما كلُّه فرْج، وكذلك من الدَّوابّ[3]، ومعنى الفَرْجُ في اللُّغة: الفُرجةُ بين الشَّيئَيْن، ولهذا سُمّيَ ما بين قوائم الدّابَّةِ الفُروج[4]، والمرادُ بالفُروج ههنا: فروجُ الرِّجالِ خاصَّةً لدلالة ما بعدهما عليهما، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ للإجماع على أنَّه لا يحلُّ للمرأةِ أن تطأ ما تملكُه[5].

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عن العَوْرةِ بالفروج:

سترُ الفُروجِ صيانةٌ للعوراتِ من المُحرَّمات

قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾؛ أيْ: لعوراتِهمُ الدّاخليَّةِ المُغلَّظةِ حافظون، فإنَّ في إطلاقِ الفَرْجِ على العوراتِ الدّاخليَّة تجوُّزًا، وهذا شأنُ القرآنِ الكريم في اسْتعمالِ الكنايات والمجازات في مثلِ هذه القضايا، دون التَّعبيرِ عنها بأسمائها - إذِ الأصلُ في معنَى الفَرْج هو الجَيْبُ الَّذي يكونُ في القميص أو الثَّوب عامَّة - فينكشفُ ما بداخله ويُرى، فأُطلقَ الفرجُ هنا على تلك العورات من باب الاستعارة التّصريحيّة؛ لأنَّ مُجرَّدَ انكشافِها سبيلٌ لانْتهاكِ حَصانتِها والوقوعِ في الفاحشة[6].

براعةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عن حُرمةِ الزِّنَى بحفظِ الفُروج:

حفظُ الفُروجِ صيانةٌ لها عن الزِّنَى المُحرَّم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ عن حُرمةِ الزِّنى بحفظِ الفُروج بطريق الكناية، ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 107.
(3) الفراهيديّ، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (فرج).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرج).
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 6.
(6) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 645.

أنَّ القرآنَ الكريمَ يستعملُ كلمةَ ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ كنايةً عن العوراتِ الدّاخليَّة، وستر هذه العوراتِ لأجلِ حفظِها من الزِّنى؛ لأنَّ كشفَها مظنَّةٌ لحدوثِ الزِّنى المحرَّم، واللّهُ تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: 32]، والمقامُ هنا في وصف المؤمنين بحفظهم فروجَهم، فيه كنايةٌ عن التَّشديد في شأنِ عدم حفظ الفُروج المُؤدّي لفاحشة الزِّنى[1]، فحفظُ الفروج يُؤدّي إلى عدم الزِّنى، وعدم الزِّنى مُؤسَّسٌ على حُرْمته.

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ تقدَّمت شِبهُ الجملة للاهْتمام بشأنِ حفظِ الفُروج، ولكونها سبيلًا للفساد والإفساد، فأمرُها خطيرٌ وعدمُ سَتْرِها يؤدّي إلى هَتْكِ حُرمتها[2]، وفي هذا التَّقديم - كذلك - إيذانٌ بأنَّ للمؤمنين حرصًا شديدًا في حفظ فروجهم؛ لأنَّ شأنَ الإضافةِ أن تُفيدَ شدَّةَ الاتّصال بين المُضافِ والمُضافِ إليه؛ لأنَّها على معنى لام الاخْتصاص؛ أي: اختصَّ المؤمنون بحفظِ فروجِهم، وأنَّ حِفْظَها صفةٌ خاصَّةٌ بهم[3].

الاهتمامُ بشأنِ الفُروج لحفظها، واختصاصُ المؤمنين بصيانتها

غرضُ التَّعبيرِ عن الفُروجِ بالحفظ:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الفُروجِ بالحفظ في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لأغراضٍ عديدة؛ أحدها: ضرورة صيانتِها عن رِجْسِ الحرام المعنويّ والمادّيّ؛ أمّا المعنويُّ فهو ما في الحرامِ من خُبثٍ يُطهّرُ نفسَه منه؛ وأمّا المادّيُّ فهو ما يكون في الزِّنى من تعرُّضٍ لأمراضٍ خبيثة، وثانيها: الاسْتمساكُ والتَّحفُّظُ بالعِفَّة، وألّا يرميَ ماءه في غيرِ محلِّه، ليُحفظَ له نسَبُه، وثالثُها: التَّقيُّدُ؛ أيْ:

ضرورةُ صيانةِ الفُروجِ وتعفُّفِها والتَّقيُّدِ فيها بالحلال

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 255، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 453، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 205.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13، 15.

ليسوا مُنطلقينَ يُلقونَها في أيِّ مكان، وعلى أيِّ امرأةٍ، كلٌّ يَنْزو كما تَنزوا الحيوانات[1].

معنَى الاسْتثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾:

حِـــلُّ الأزواج ومـمـلـوكـات اليمين من سائر النِّساء

الاسْتثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ اسْتثناءٌ من عُموم مُتعلَّقات الحفظِ الَّتي دلَّ عليها حرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ أي: حافظوها على كلِّ ما يُحفَظُ عليه إلّا المتعلَّقُ الَّذي هو أزواجُهم، أو ما مَلكتْ أيمانُهم، فضُمِّن (حافظوا) معنى عدمِ البَذْل، يُقالُ: احْفَظْ عليَّ عَنانَ فرَسي، كما يُقال: أمْسِكْ عليَّ، كما في آية: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]، والمُرادُ: حِلُّ الصِّنفَيْن من بين بقيةِ أصنافِ النِّساء[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاسْتعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾:

عُلوُّ ذِكْرِ ما أحلَّه اللهُ

عبَّر بيانُ النَّظم القرآنيِّ بحرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ أي: اللّاتي ملكوا أبضاعَهنَّ بعقدِ النِّكاح، وهذا يقتضي عُلوَّ الذِّكْر، فناسَبُه التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾[3]، ومن ظلال ﴿عَلَىٰٓ﴾ التَّنفير الشَّديد من تعدّي أصحاب الفُروج بها على غير ما يحلُّ لهم.

دَلالةُ شِبْهِ الجملة ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ على محذوفٍ:

الولايةُ والقَوامةُ علـــى الأزواج وحِلُّهم لهم

دلَّ شِبْهُ الجملة ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ على محذوفٍ؛ وتقديرُه: (إلّا والينَ على أزواجِهم، أو قوّامين عليهنّ)؛ من قولك: كان فلانٌ على فلانةٍ فمات عنها، فخلَفَ عليها فلان، ونظيرُه كان زيادٌ على البصرة؛ أيْ: واليًا عليها، ومنه قولُهم: ثلاثةٌ تحت فلان، ومن ثمَّةَ سُمّيتِ المرأةُ فراشًا، والمعنَى أنَّهم لفُروجِهم حافظون في كافَّةِ الأحوال إلّا في حالِ تزوُّجِهم أو تَسرّيهم، أو تعلَّقَ بمحذوفٍ يدلُّ عليه قولُه: ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، كأنَّه قيل: يُلامون إلّا على أزواجِهم؛ أيْ:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5046 - 5047.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 13 - 14.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 108.

يُلامونَ على كلِّ مباشرةٍ إلّا على ما أُطلِقَ لهم، فإنَّهم غيرُ مَلومينَ عليه، أو تجعله صلةً لـ: ﴿حَٰفِظُونَ﴾ من قولك: احفظْ عليَّ عَنان فرسي، على تضمينه معنَى النَّفي، كما ضُمِّن قولُهم: نشدتُكَ باللّه إلّا فعلتُ، معنَى: ما طلبتُ إليكَ إلّا فِعْلَك؛ يعني أنَّ صورتَه إثبات، ومعناه نفيٌ[1].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾:

صيانةُ الفُروج عن كلِّ فرجٍ إلّا عن فُروجِ أزواجِهم

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ جاء بعد الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾ الَّذي هو استثناءٌ من عموم مُتعلّقاتِ الحفظِ الَّتي دلَّ عليها حرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾، وبهذا يكون التَّقدير: حافظوها على كلّ ما يُحفَظُ عليه إلّا المتعلَّق الَّذي هو ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، فضمَّنَ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ معنَى عدمِ البَذْل، فيكونُ ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ جارًّا ومجرورًا مُتعلّقًا بالمُستثنَى بـ ﴿إِلَّا﴾؛ أيْ: حافظون لها من كلِّ أحدٍ إلّا من أزواجِهم؛ أيْ: صانوها عن كلِّ فرْجٍ إلّا على فُروجِ أزواجِهم[2]، ويمكنُ أن تكون ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ مُتعلقةً بمحذوفٍ وقع حالًا من ضميرِ ﴿حَٰفِظُونَ﴾؛ أيْ: حافظون لها في جميعِ الأحوالِ إلّا حالَ كونِهم والينَ أو قوّامين على أزواجِهم[3]، ويمكنُ أن تكون ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلّ عليه ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ كأنَّه قيل: (يُلامون على كلِّ مباشرٍ إلّا ما أُطلِقَ لهم فإنَّهم غيرُ ملومين)[4]، والوجهُ الأوَّلُ أوْلى لاتِّساقِه مع ظاهرِ السّياق.

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 26.

(2) العكبريّ، التّبيان: 2/ 147، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.

(3) العكبريّ، التّبيان: 2/ 147، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 50.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 50، ولم يجوِّز العكبريّ هذا الوجه إذ قال: "ولا يجوز أن يتعلَّق بـ ﴿مَلُومِينَ﴾ لأمرَيْن: أحدهما: أنَّ ما بعد (إنّ) لا يعمل فيما قبلها، والثّاني: أنَّ المضاف إليه لا يعملُ فيما قبله، وإنَّما تعلَّقت على يحافظون على المعنَى، ويجوز أن تتعلَّق بفعلٍ دلَّ عليه ﴿مَلُومِينَ﴾ أي: إلّا على أزواجهم لا يُلامون، يُنظر: العكبريّ، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 147.

معنَى ﴿أَوْ﴾ في: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾:

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ فـ ﴿مَا﴾ في موضعِ خفضٍ معطوفة على ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾، وهي بمعنَى الإباحة؛ أيْ: إباحة بين هذيْن الصِّنفيْن اللَّذيْن أحلَّهما اللّٰهُ للأزواج دون غيرهما: الأزواجِ من النِّساءِ الحرائر والإماء، أو المعنَى: (لفروجهم حافظون إلّا في حالِ ما أباحه اللّٰهُ لهم في حالِ تزوّجهم أو تَسرّيهم)[1].

الإباحةُ لصنفي النّساء الحرائر والإماء

معنَى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾:

التَّعبيرُ عن الإماء باسْمِ ﴿مَا﴾ الموصولة، غالب اسْتعمالها لغيرِ العاقل، وقد جرى هنا على خلافِ الغالب في عادة استعمال العرب فاستُعمل للعاقل[2]، والتّعبير بـ ﴿مَا﴾ يفيد تعميم وطء ما مُلِك باليمين، وهو مختص بالإناث[3]، وللفرْقِ بينهنّ وبين الحَرائِرِ[4].

بلاغةُ المجاز العقليّ في إسنادِ المِلك إلى أيمانِهم:

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾؛ أيْ: سَراريهم؛ فأسْنَدَ المِلكَ إلى الأيمانِ كنايةً عن ملكِ صاحبِهنّ لرقبتهنّ، إمّا بالتَّسرّي بهنَّ لِنَفْسه، وإمّا ببيعهنَّ أو شرائهنّ، فقد اجتمعت في هذه الأمَةِ السُّرّية وصفان: أحدُهما: الأنوثة؛ والآخر: كونُها مِلكًا لصاحبها[5].

الإماءُ ملكٌ لصاحبهنَّ يتصرَّف فيهنّ

سرّ التعبير عن الإماء بملك اليمين:

دَرَج البيان القرآنيّ على تسمية الإماء والسّراري بملك اليمين تفاؤلًا باليُمن؛ لأنّ اليمين مخصوصةٌ في معهود الاستعمال العربي بالمحاسن.

إطلاق ملك اليمين على السّراري تفاؤل باليُمن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 261.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 14.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 549.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 108.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 262.

وذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أنّ إطلاق (ملك اليمين) على الأمَة أو الجارية هو من باب إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنّ الغالب أنّ اليمين سببٌ في الحصول عليهنّ، وفي كلّ هذه الحالات يكون التعبير من باب المجاز، حيث أسند الملك إلى السّبب.

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾:

حفظُ فروجِهم إلّا مع أزواجِهم وإمائهم يمنع لومَهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ للإفصاح؛ لأنَّها تُفصحُ في شرطٍ مُقدَّرٍ مأخوذٍ من الكلام؛ أيْ: فإذا كان ذلك على أزواجِهم أو ما ملكتْ أيمانهم فإنَّهم غيرُ ملومين[1]؛ فالفاءُ تفريعٌ للتَّصريح على مفهوم الاسْتثناءِ الَّذي هو في قوَّة الشَّرط - كما تقدَّم - فأشْبهَ التَّفريعُ عليه جوابَ الشَّرط، فقُرئ بالفاءِ تحقيقًا للاشْتراط[2].

تتابعُ المؤكِّدات (إنّ) والجملة الاسميَّةُ:

تأكيدُ انْتفاءِ اللَّوم الشَّرعيِّ على مَن حفظَ فرجَه على ما أُحلَّ له

المُؤكِّداتُ (إنَّ) والجملةُ الاسميَّةُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تصريحٌ بزائدٍ على حُكم مفهومِ الاسْتثناء؛ لأنَّ الاسْتثناءَ لم يدلَّ على أكثرَ من كَوْنِ عدمِ الحفظِ على الأزواجِ والمملوكات لا يمنع الفَلاح، فأُريدَ - زيادة بيانٍ وتأكيدٍ - أنَّه أيضًا لا يوجبُ اللَّوْمَ الشَّرعيّ، فيدلُّ هذا بالمفهوم على أنَّ عدمَ الحفظِ على مَنْ سواهنَّ يوجبُ اللَّومَ الشَّرعيَّ ليحذرَه المؤمنون[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَلُومِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كيف يُلامُ مَن يأتي ما أحلَّ الله له؟!

اللَّومُ: الإنكارُ على الغَيرِ ما صدَرَ منه من فعلٍ أو قولٍ لا يليقُ عند اللائم، وهو مرادفُ العَذْلِ وأضْعفُ من التَّعنيف[4]، فمادَّةُ اللَّوم قائمةٌ على عَذْلِ الإنسانِ بنسبته إلى ما فيه لَوْم[5]، وذكرَ اللَّومَ هنا

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5046.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(5) الرّاغب، المُفردات: (لوم).

تنبيهًا على أنَّه إذا لم يُلاموا لم يُفعلْ بهم ما فوق اللَّوْم، فهم لا يُلامونَ على الحلالِ بوطءِ أزواجِهم أو إمائهم[1]، ولذلك جاءت ملومين بهذه الصّيغة تعبيرًا على أنَّهم لم يُعرِّضوا أنفُسهم للَوم لم يستحقّوه في عدمِ حفظ فروجِهم من هذيْن الصِّنفين: أزواجِهم وما ملكت أيمانُهم[2].

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَمَنِ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ تُفيدُ ترتيبَ ما بعدها على ما قبلَها؛ أيْ: إذا كان الحلالُ في هذه الدّائرة؛ فهو غيرُ عدوانٍ على الأُسَر، وعلى المجتمع وعلى النَّفس، فيترتَّبُ على التَّحريمِ السّابقِ منعَ ابْتغاءِ المُحرَّمات، والابتغاءُ هو الطَّلبُ الشَّديد الَّذي يؤدّي إلى العدوان[3].

عـدمُ الـعـدوان مُـترتِّـبٌ عـلى الحلالِ الطَّيِّب

معنَى حرف (مَن) في السّياق:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ اسمٌ موصولٌ عامٌّ، أو أداة شرط يُحمل على لفظها بالإفراد والتذكير، وعلى معناها بمُطلق الجمع؛ وهو إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾؛ فعبَّرت (من) عن ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: العادون، وفيه تحذيرٌ شديدٌ بعد ذلك من التَّفريع بأنَّ المذكورَ في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾؛ أيْ: وراء الأزواج والمملوكات؛ أيْ: غيرَ ذَيْنَك الصِّنفَيْن فيُخشَى أن تتغلَّبُ شهوةُ الفَرْج على حافظِها، فيقع فيما وراءَ ذلك ممّا حرَّمه اللّهُ عليه[4].

مَـن ابْـتـغـى ما وراءَ مـا أحـلَّـه الـلـهُ وقـعَ في الحرام

سِرُّ حمل (مَن) على لفظها ومعناها:

حُمِل على معنى (مَن) بالإفراد والتَّذكير في قوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾؛

كـلُّ نـفـسٍ بـمـا كـسـبـت رهينةٌ، والأسرةُ صـورةٌ مُـصـغَّـرةٌ للمجتمع

(1) مُقاتل بن سليمان، تفسير مُقاتل: 2/ 29، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 410.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 50.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5047 - 5048.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.

فأمّا الإفرادُ فلأنّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: 38]، وأنتَ أيها الإنسان المسؤول أولًا وأخيرًا عن فعلك وقولك وعملك ونيّتك؛ وإن كان لذلك مدخلٌ في إيجاده مِن غيرك، وأمّا التّذكير فلأنّ هذا المعنى إنّما يختصّ بالرجال، وحُمِل على معناها بالجمع المُذكَّر في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ - وتوجيهُ التَّذكير هنا كسابقه مع الإفراد -؛ إرشادًا إلى أنَّ عظيم الأثر السّلبيّ لمعنى الشّرط في الجماعة المسلمة؛ فإنَّ مَن ابتغى وراء ذلك أفسد أسرته وهدمها، وأفسد أسرة مَن فعَل بها ذلك الفُحْشَ وتلك الفاحشةَ، والأسرةُ صورةٌ مُصغَّرةٌ للمجتمع الكبير؛ فهو ينهدم بانهدامها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

تقريرُ التَّحذيرِ من الاعتداء ممَّن ابتغى وراء ما أحلَّ اللهُ

جاء قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ تفريعًا على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الَّذي أشْبهَ التَّفريعُ عليه جوابَ الشَّرط، فقُرِئ بالفاء تحقيقًا للاشْتراط، وزيدَ ذلك التَّحذير تقريرًا بأن فُرِّعَ عليه ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾؛ لأنَّ داعيةَ غَلَبةِ شَّهوة الفَرْج على حفظِ صاحبِه إيّاه غريزةٌ طبيعيَّةٌ يُخشَى أن تتغلَّبَ على حافظها فيتعدَّى إلى ما وراءَ الأزواجِ والمملوكات[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالابْتغاءِ مادَّةً وصيغةً:

قصدُ ما حرَّم اللهُ ابْتغاءٌ للفُحشِ وحرصٌ عليه

الابْتغاءُ: افْتعالٌ من البَغْي، والبَغْيُ في ذاته في معنَى التَّعدّي، وطلبِ سوى الحلال، وقصدِ الفُحش والحرام[2]، وهو هنا بصيغتِه ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ يدلُّ على قَصْدِ ما سوى الأزواجِ والولائد بما حرَّمَ اللهُ تعالى، والسَّعيِ للانْحراف، فلا يقفُ أولئك عند الحلال؛ بل يطلبون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7، والرّاغب، المُفردات: (بغي).

الشَّهواتِ بشدَّةٍ تؤدّي بهم إلى الانْحرافِ عن الجادَّة[1]، والصّيغة تدلُّ على أنَّ ما يُبتغَى من غير ما يحلُّ من النِّساء لا يُبتغى إلّا بقوَّةٍ وشدَّةٍ وتكلُّفٍ وكمال رغبةٍ.

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿وَرَآءَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: سواه، وعبَّر عنه بـ ﴿وَرَآءَ﴾ إشارةً إلى أنَّه انْحطاطٌ في الرُّتبة، وإلى أنَّه وراءُ الإنسانيَّةِ المستقيمة، وانحرافٌ في القصد، وضلالٌ في الفعل[2].

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ بالإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو إشارةٌ إلى الأزواجِ والإماء؛ أيْ: مَنِ ابْتغى وراءَ ما أحلَّه اللّهُ له من الأزواجِ والإماء؛ فقد تعدَّى حدودَ اللّه، واسْتعمالُ الإشارةِ للبعيد بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لبُعدِ الابْتغاءِ عمّا أحلَّ اللّه وطلب ما سواه ممّا حرَّمه اللّه[3]؛ ففي التّعريف في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيمٌ للأزواج والإماء؛ على تقدير رجوعه إليهنّ، وتعظيمٌ لقضاء شهوة الفَرْج في ما أحله اللّه في الأزواج والإماء؛ على تقدير تفسيره بهذا.

في الابتغاء المُشار إليه ابْتعادٌ عن رضا الله

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عن الزِّنى بـ ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾:

كَنَّى النَّظمُ الكريمُ عنِ الزِّنَى بقوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: سوى ما أحلَّه اللّهُ من الفُروجِ في الأزواجِ والإماء، وأصلُ الوَراءِ: اسمُ المكان الَّذي في جهةِ الظَّهر، ويُطلقُ على الشَّيءِ الخارج عن الحدِّ المحدود تشبيهًا للمُتجاوزِ الشَّيءَ بشيءٍ موضوعٍ خلف ذلك الشَّيء؛ لأنَّ ما كان من أعلاق الشَّخص يُجعلُ بين يديه وبمرأًى منه، وما كانَ غير ذلك يُنبَذُ وراء الظَّهر[4].

عادةُ القرآنِ الكريم في إيرادِ الألفاظِ الأدبيةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5048، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 107.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5048.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.

معنَى الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

رَبْـطُ الـعُـدوانِ بابْتغاءِ الحرام

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ رابطة لجواب الشَّرط بأداته وفعله ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾، وهي تُفيدُ رَبْط ما جاء بعدها من العدوان بما سبَقها من ابتغاء الحرام - ربطًا جازمًا حاسمًا[1].

نكتةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة للبعيد (أولئك):

زيادةُ تمييز مَنْ لم يحفظ فرْجَه عن الحرام بهذه الخصْلة القبيحة

جاء التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ للبعيد (أولئك) في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾؛ لزيادةِ تمييزهم بهذه الخَصْلةِ الذَّميمة، وليكونَ وصفُهم بالعُدوان مشهورًا مقرَّرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: 177][2]؛ فيكون فيه كلُّ ذمٍّ لهم؛ فيتْبَع ذلك التَّنفير الشَّديد من تلك الخصلة القبيحة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة:

مَن لم يحفظْ فرْجَه عن الحرامِ ثبتتْ له صفةُ المُعتدي

أفادَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسْميَّة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ ثباتَ وملازمةَ هذه الصِّفة القبيحة لأولئكَ الَّذين تعدَّوْا حدودَ اللّٰه، فاسْتبدلوا بالحلالِ الطَّيّبِ في أزواجِهم وإمائهم فيما وراءَ ذلك الحرامَ الخبيث[3].

بلاغةُ القَصْر بتعريفِ طرفي الإسنادِ وضميرِ الفصل:

المتجاوزون غيرَ الأزواج والإماء همُ البالغون غايةَ العدوان

ورد قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ وحملَ معه بلاغةَ القَصْرِ من خلالِ طرفي الإسناد في المُسند: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفي المُسند إليه: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ وتوسطّهما ضميرُ الرَّفعِ المُنفصل ﴿هُمُ﴾ - الَّذي يُفيدُ تقويةَ الحُكم - وهو قصرُ موصوفٍ على صفة، فقد قصرَ النَّظمُ الكريمُ ابتغاءَ ما حرَّم اللّٰهُ دون ما أحلَّه على صفةِ الاعتداء؛ أيْ: وصفَ مَنْ طلبَ الحرامَ في الفُروج دون ما أحلَّه اللّٰهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.

له من الأزواج والإماء بأنَّه معتدٍ؛ أيْ: همُ البالغون غايةَ العدوان على الحدود الشَّرعيَّة[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾:

مَـــنْ ظـلـمَ وتـــجـــاوزَ؛ اسـتـحـقَّ صفةَ الاعتداء

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ للاستحقاقِ والمبالغة؛ أيْ: مَنْ ظلموا وتجاوزوا الحلالَ إلى الحرام في أمرِ الفُروج؛ فقد استحقُّوا الوصفَ الثّابت، ولزمتهم صفةُ ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾؛ فقد عَدَوْا، وجاروا، وظلموا، وبالغوا في تعدّي الحدود[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

الظُّلمُ والجَوْرُ والتَّجاوزُ وجوهٌ لمعنَى التَّعدّي

العادي هو المُعتدي؛ أيِ: الظّالم؛ لأنَّه عدا على الأمر؛ أيْ: جارَ وظلم، وعدا: جاوز[3]، وهما يرجعان إلى أصلٍ واحد؛ لأنَّ الظّالمَ مُجاوزٌ ما حُدَّ له؛ فالعادون هم الجائرون الظّالمون[4] الَّذين يتعدّون الحلالَ إلى الحرام[5]، وبلاغة التّعبير بمادة (عدا) دون مادة (ظلم) كامنةٌ في التّنبيه على أن عِرْضَ الغيرِ حِمًى مصونٌ محفوظٌ لا ينبغي الحَوْمُ حولَه ولا التّطرُّق إليه ولا التّعرُّضُ له ولا تجاوزُه بحالٍ، والظّلمُ هو وضع الشّيء في غير موضعِه؛ فلفتُه إلى هذا المعنى أضعفُ من لفت معنى: ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ إليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُروج والعورات:

الفَرْجُ والعَوْرةُ يشتركان في معنى الشَّقِّ في الشَّيء، ويتعاوران في الإطلاق

الفُروجُ: جمع فرْج، وأصلُ معناه: الشَّق، وهو الفُرْجة بين الشَّيئَيْن[6]، والفَرْجُ: هو ما بين رِجْلي الفَرَس.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 105، 108.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح: (عدا).
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.
(5) الجشميّ، التَّهذيب: 6/ 193.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللّغة: (فرج).

وتطلَقُ الفُروجُ على فُروج الرِّجال والنِّساء، وهي ما يُسمَّى بالعَوْرةِ المغلَّظة، والفَرْجُ اسْمٌ يجمعُ سَوْآتِ الرِّجال والنِّساء، فالقُبُلان وما حواليهما كلُّه فرْج[1].

والعَوْرةُ: سوأةُ الإنسان؛ وذلك كناية، وأصلُها من العار؛ وذلك لما يلحقُ في ظهورِه من العار؛ أي: المذَمَّة، ولذلك سُمّيَ النِّساءُ عَوْرة؛ فقد ورد في الحديث الشّريف: "المرأةُ عورةٌ، فإذا خرَجَتْ اسْتَشْرَفَها الشيطانُ"[2]، ومن ذلك العَوْراء للكلمةِ القبيحة، والعَوارُ والعَوْرةُ: شقٌّ في الشَّيء كالثَّوبِ والبيتِ ونحوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: 13]؛ أيْ: مُتخرِّمةٌ مُمكنةٌ لما أرادها، ومنه قيل: فلانٌ يحفظ عَوْرتَه؛ أيْ: خَلَلَه، وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النّور: 58]؛ أيْ: نصفُ النّهار، وآخرُ اللَّيل، وبعدَ العشاء الآخرة، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّور: 31]؛ أيْ: لم يبلُغوا الحُلُم[3].

العَدْو والبَغي والطُّغيان والعُتوّ:

المُـــفـــردات جميعُها فيها معنَى التَّجاوزِ والظُّلم وأشدُّها الطُّغيان

العَدْو: عَدا يَعْدوا عَدْوًا، وعَداهُ يعدوه: جاوزَه، والتَّعدّي: مجاوزةُ الشَّيءِ إلى غيره، وعدا؛ أيْ: جارَ وظَلَم، وعدا: جاوز، وهما يرجعان إلى أصلٍ واحد؛ لأنَّ الظّالمَ مجاوزٌ ما حُدَّ له[4]، وقولُه تعالى: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾؛ أي: الجائرون الظّالمون[5]، المتجاوزونَ لحدودِ اللّه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلاق: 1].

والبَغْيُ: شدَّةُ الطَّلَبِ لما ليس بحقٍّ بالتَّغليب، وأصلُه في العربيّة: شدَّةُ الطَّلب، ومنه يقال: دفعْنا بغيَ السَّماءِ خَلْفَنا؛ أيْ: شدّةَ مطرِها، وبغَى الجرحُ يَبْغي، إذا تراقَى إلى فسادٍ يرجع إلى ذلك، وكذلك

(1) الفراهيديّ، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرج).
(2) التّرمذيّ، السُّنن، برقم: (1173) واللّفظ له، والبزّار، المُسند، برقم: (2061)، وابن خُزيمة، الصّحيح، برقم: (1685) مُطوَّلاً.
(3) الرّاغب، المُفردات: (عور).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عدا).
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.

البغاء، وهو الزِّنى، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33] أنَّه يريد التَّرأُّسَ على النّاس بالغَلَبةِ والاسْتطالة[1].

والطُّغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في المكروهِ مع غَلَبةٍ وقَهْر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقّة: 11]، يُقالُ: طغى الماءُ إذا جاوزَ الحدَّ في الظُّلم.

والعُتوُّ: المبالغةُ في المكروه، فهو دون الطُّغيان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، قالوا: كلُّ مُبالغٍ في كِبْرٍ أو كُفرٍ أو فسادٍ فقد عتا فيه، ومنه قولهُ تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقّة: 6]؛ أيْ: مُبالغة في الشِّدَّة، ويُقال: جبّارٌ عاتٍ؛ أيْ: مُبالغٌ في الجبريَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطّلاق: 8]؛ يعني: أهلها تكبَّروا على ربِّهم فلم يُطيعوه[2].

اللَّوم والتَّثريب والتَّفنيد:

اللَّومُ على الفعلِ الحَسَن، والتَّثريبُ على القبيحِ مع التّوبيخ، وفي التَّفنيد محاججة

اللَّومُ: عذلُ الإنسان بنسبتِه إلى ما فيه لَوْم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]، واللَّومُ قد يكون لما يفعلُه الإنسان في الحال، ولا يُقال لذلك تقريعٌ وتثريبٌ وتوبيخ[3]، واللَّوْمُ يكون على الفعلِ الحسن، ولا يكون التَّثريبُ إلّا على قبيح.

والتَّفنيدُ: تعجيزُ الرَّأي، يقالُ: فنَّدَهُ إذا عجَّزَ رأيَه وضعَّفه، والاسْمُ: الفَنَدُ؛ وهو الخطأُ في القولِ والرَّأي، وأصلُ الكلمةِ الغِلَظ؛ ومنه قيل للقِطْعة من الجبل: الفِنْد بكسرِ الفاء وفتحِها.

والتَّثريبُ: الاسْتقصاءُ في اللَّوم والتَّعنيف، وثَرَّبَ عليه تثْريبًا: قبَّحَ عليه فعلَه، وأصلُه من (الثَّرْب)؛ وهو شحمُ الجَوْف رقيق؛ لأنَّ البلوغَ إليه هو البلوغُ إلى المواضعِ الأقْصى من البَدَن، والتَّثريبُ شبيهٌ بالتَّقريعِ والتَّوبيخ؛ تقول: وبَّخَه وقرَّعَه وثرَّبه بما كان منه[4].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 341 - 342، والرّاغب، والمُفردات: (بغي).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 337، والرّاغب، المُفردات: (طغى) و(عتا).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 116 - 117، والرّاغب، المُفردات: (لوم).
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 116 - 117، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (فند) (ثرب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»